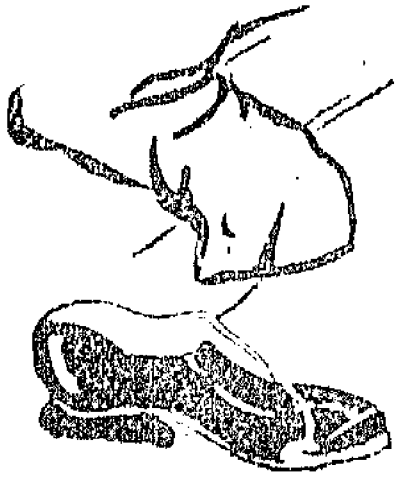

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدي الردنجوت وقد شمرت — جدتي — أكمامه ، وثنت ساق البنطلون ، وأخذت أنتقل الهوينا بقدمى (ياق) فى الحذاء ، وكأنى ألبس مركباً !!

فى ردنجوت ..

وسهلا سعادة الباشا . . .

— أهلا بك . . إزيك يا أستاذ . . .

— الحمد لله . . إلى الإسكندرية إن شاء الله ؟

— إن شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام بالسكة الحديد . . فالطائرة توفر كثيراً من الوقت .

— ولكن الأرض أضمن « أنل قدمى ظهر الأرض أنى »

— ياسيدى . . العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا تافهاً متقطعاً . . . حديث لقاء عابر فى قطار . . وكنا نجلس فى عربة تكييف الهواء فى القطار السريع المسافر إلى الإسكندرية يحيط بنا جو من الفخامة والأبهة يصعر الخد وينفخ الأوداج . ويملأ بالكبرياء أشد الناس تواضعاً ، وينفخ بالارستقراطية أحطهم قدراً وأوضعهم شأناً .

واضطجعت فى المقعد اللين الوثير ووضعت ساقاً على ساق . . فقد كانت تلك هى أقل جلسة يمكن جلوسها فى هذا الجو الفاخر ، ولاسيما أن الباشا محدثى كان قد اتخذ هذا الوضع وعلق ساقاً على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لى أن من الخير — قبل أن أمعن فى السرد — أن أزيل من ذهن القارىء ما قد يكون علق بذهنه من وهم خاطىء عن الباشا الذى نحن بصدده . فيظنه مما قلت عن باشاويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالثقيل ولا الدعى ولا المتعجرف . . على النقيض من ذلك كان نموذجاً للذكاء واللطف وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبدالعزيز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال المعروفين فى البلد . . لايزيد عمره على الخامسة والأربعين وهو يملك عدة شركات مختلفة . . بينها بضع شركات للأوتوبيس والدوبارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ، وتألألا نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار إلى قدرتهم ونبوغهم بالبنان .

وكنت أقدره مما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته فلما لقيته زاد تقديرى له . . لما رأيته من خفة دمه ودماثة خلقه . . .

وأخذت أرقبه وقد جلس فى مقعده ووضع بين شفتيه سيجاراً طويلا . . وتدلت من صديريته سلسلة ذهبية . . وبدا وجهه منتفخاً ، ووضع على عينيه منظاراً رقيقاً ذا إطار ذهبي أنيق ، وداخلنى من منظره إعجاب كثير . . وقلت لنفسى : إن مثل هذا الرجل جدير بالاحترام . . فقد كسب مركزه وثراءه بجهده وذكائه . . وأن مخلوقاً موهوباً مثله كان لابد أن يلقى مالاقى من نجاح .

وانحدر بصرى من وجهه إلى جسده . . إلى ساقيه . . وقد وضع إحداهما فوق الأخرى . . فشمر بنطلونه وانحسر عن جوربه الحريرى النايلون ، وجزء من ساقه الجرداء السمراء ، وبدت لى قدمه صغيرة كقدم الطفل وقد دسها فى حذاء (باللى) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات خفيفة . . .

وظل الحديث يجرى بيننا متقطعاً . . سؤال من هنا . . وجواب من هناك . حتى خطر لى أن أسأله عن قصة نجاحه . وعن مظاهر النبوغ فى أطوار حياته . . طفولته . . وصباه وشبابه . . إن حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درساً نافعاً لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء

كأنها فى ضيق . . ثم أبصرت بيده تمتد إلى كعب الحذاء فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكى تعطى للأصابع فرصة التحرر ثم تعود يده إلى مكانها من جيب صديريته تاركة الحذاء يتأرجح معلقاً على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رآنى أرقب عملية نزع الحذاء ثم تمتم معتذراً :

ـــ لامؤاخذه . . أحب أن أريح قدمى قليلا . . إن الحذاء ضيق بعض الشىء .

ـــ العفو ياسعادة الباشا . . خذ حريتك .

ـــ إنى دائماً ألبس حذاء ضيقاً . . فليس أبغض إلىّ من الحذاء المتسع . . إنها عادة قديمة . . قديمة جداً .

ثم انطلقت منه قهقهة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

ـــ زمن ! . .

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عادته القديمة فى كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن ببعض الإسهاب . . ولكنى وجدته يصمت ، وسمعت بدلا من صوته . . صوت شخير قد علا بجواره .

ونظرت إلى صاحب الشخير فإذا به عجوز قد راح فى سنة من النوم ، ورأيت الباشا ينظر إليه ثم يستغرق فى الضحك

مرة أخرى ويعود إلى لهجته الساخرة قائلا :

ـ دنيـــا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهى بعض علامات الضيق الناتجة من إغراقه فى الأقوال المبهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن الزمن . . فقد بدأ يفصح قائلا :

ـ الحذاء المتسع ، وما أدراك ما الحذاء المتسع . . لقد كان مصدر شقائى فى باكورة الحياة . . كان أكبر مصيبة رزئت بها .

وعاد الرجل إلى الضحك . فلم أملك سوى أن أستغرق معه فى الضحك . . حتى بدأ يتمالك نفسه قائلا :

ـ كان ذلك منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، وكنا نقطن وقتذاك بالدرب الأحمر فى حارة الروم . . وقد ضمنا جميعاً بيت كبير حوى جميع أفراد العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير ـ والد أمى ـ تاجراً بالغورية . . يعيش من أولاده خالى الأكبر وخالى الأصغر وأمى . . وكان أبى قد توفاه الله . . . وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتى من الخال الأصغر ـ خالى طه ـ وهو أعقل أفراد العائلة وأكثرها اتزاناً أن يتولى شراء ملابس العيد لى .

وكان لخالى طه — من يومه — نظريات رفيعة فى فن الاقتصاد ويبدو لى أنه قد أبى إلا أن يطبق نظرياته الرفيعة — التى كانت مداركنا أعجز من أن تفهمها وقتذاك — فى عملية شراء ملابسى المتواضعة فقد خرج إلى السوق يجول جولة بين الفورية والموسكى ليبتاع لى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول أن يصطحبنى حتى لاأعرقل حركته . . وخاصة أنه لم يجد هناك مبرراً لعملية القياس ، فقد كان يعرف مقاسى بالنظر . واستمر ينتقل من دكان إلى دكان . . دون أن يجد البضاعة الملائمة أو السعر الملائم . . حتى وقف فجأة أمام بذلة معلقة فى أحد الدكاكين .

عجيب . . ! هذا سعر لايصدق . . إنها صفقة هائلة ! كيف يمكن هذا . . لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ السعر . . ليدخل إذن ، ويتحقق بنفسه .

ودخل الخانوت وسأل صاحبه . . فأجابه أن السعر مضبوط لالبس فيه ولا خطأ .

مدهش . . ! خمسة وسبعون قرشاً لبذلة ردنجوت ! .

لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه . . . وأنه لهذا أبى استلامها ، وأنه يعرضها للبيع .

خمسة وسبعون قرشاً . . ! يابلاش ! .

إنها صفقة هائلة . . لابد من شرائها .

إنها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة . . ولكن لاشك أنه يمكن استعمالها . . ولايغرب عن البال أننى صبى وفى دور النمو ، وأن حجمى يتزايد . . وقد أنمو فى العام القادم بغأة . . فتصبح البدلة محبوكة علىّ .

ولكنها . . ردنجوت ، وأنا طفل !

وأى ضير فى ذلك ؟ هل هناك قانون يحرّم على الأطفال لبس الردنجوت ؟ .

لا . . لا . . يجب ألا يتردد فى شرائها .

وهكذا أقدم على شرائها . . لمجرد أنها فى حد ذاتها صفقة رابحة . . بصرف النظر عن صاحب البدلة . . . وصلاحيتها له .

أجل . . إننى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائماً للبدلة . . لأنها بدلة متينة ورخيصة ، وحرام أن تضيع من يدنا . . .

وهكذا تم شراء البدلة . . أما الحذاء فقد كانت نظريته فيه لاتقبل المجادلة .

لقد كان يعتقد أن قدمى دائمة النمو ، وأن حذائى الجديد يجب أن يكون أكبر بعدة نمر حتى لايضيق علىّ ويصبح غير صالح للاستعمال قبل أن يبلى . !

وبمثل هذه النظرية ابتاع لى الحذاء .

وعاد إلى البيت يحمل الردنجوت والحذاء الكبير .

لقيته جدتى مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما أحضر . . فأنبأها بلهجة الواثق إن هذا خيرما يصلح لى .

وكان من العبث مناقشته ، ولم أكن أنا نفسى — ككل طفل — أهتم بنوع الملابس أو مقاسها ، بقدر ما أهتم بها كأشياء جديدة . وكانت فرحتى بها ولهفتى على ارتدائها تجعلنى أرفض أية محاولة لإرجاعها أو مناقشة فى عدم صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد . . وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمرت — جدتى — أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت انتقل الهوينا بقدمى « يلق » فى الحذاء ، وكأنى ألبس مركباً ! .

والمدهش أن الله قد أبى أن يحقق نظرية خالى فى مسألة نموى . . فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأنا أهرول فى البذلة والحذاء ، وأقسم ثلاثاً أننى لو عثرت اليوم على الحذاء لعامت فيه قدماى . . لقد كان خالى بعيد النظر جداً . . أبعد مما استطعت أنا الوصول إليه .

وكانت البذلة والحذاء أمراً محتملا فى العيد . . لاسيما

أن جدتهما وفرحتى بهما لم تذهب بعد ، وأن اختيالى لم يكن يتعدى الحارة وأهل الحارة . ولكن لم تكد تنتهى الأجازة وأذهب إلى المدرسة . . حتى بدأت أثير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجنى الضجة . . فقد كنت — من يومى — مخلوقاً مرحاً « هليهلى » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الردنجوت مبعثاً لخجلى أو لضيقى . . بل كنت أشترك مع التلاميذ فى نكاتهم علىّ ، أردها تارة وأحتملها تارة أخرى ، وأنا فى الحالتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن احتمل الردنجوت . . أما الحذاء فقد كان مصابى الأكبر ، وخاصة فى حصة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس . . أى بعد فسحة الغداء ، وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابريمى . . كناية عن أنه جاف مقدد مقلحف كالبلح الابريمى ، ولم تكن العلاقة بينى وبين الشيخ على بطيبة فى يوم من الأيام . . فقد كان دائماً يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير فى حياته تلميذاً أكثر منى غباء . وكان ينصحنى دائماً بأن أقلع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلمها ، لأنه لا أمل لى قط فى النجاح .

ولم يكن الشيخ يمتحن علىّ فقد كنت فعلا مخلوقاً غبياً ، وخاصة فى العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئاً عن النحو والصرف والإعراب لسبب واحد . . هو أنى لم أستطع البقاء مستيقظاً فى حصة واحدة من حصص الشيخ على . . فقد كانت حصصه تعقب الغداء مباشرة وكان الجهد الذى أبذله فى الفسحة والشراهة التى أتناول بها الطعام . . . تجعل استيقاظى فى الحصة الخامسة أمراً مستحيلا .

وكان نومى — قبل أن ارتدى الحذاء اللعين — مسألة مضمونة مأمونة . . أما بعد ارتدائه . . فقد أضحى عملية مفضوحة مكشوفة .

كان جرس الفسحة يدق فندخل الفصول . . ويجلس كل منا فى مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعداً خاصاً فى الحصة الخامسة . . هو آخر مقعد فى ركن الفصل ، وكنت أجلس فيه آمناً مطمئناً . . يحجبنى عن عين الشيخ على جسد التلميذ الضخم الجالس أمامى . . الذى كان يستر جسدى الضئيل تماماً .

ويبدأ الشيخ على الشرح . . بصوته الرفيع ذى النغمة الواحدة التى لا تتغير . . والتى كان لها تأثير مهدىء على أعصابى ، والتى كانت تعادل وقتذاك حفنة من الأقراص

المنوّمة ، وأحاول عبثاً أن أتتبع حديث الرجل عن البدل والحال . . ولكن لاتمر برهة حتى أكون قد سبحت مع الملائكة فى سبات عميق .

وكانت عادتى — ومازالت — عندما أنام وأناجالس أن أتخذ وضعاً مريحاً . . بوضعى ساقاً على ساق .

ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزانى الخال العزيز . . بالحذاء إياه .

لقد وضعت — كعادتى — ساقاً على ساق ، ورحت فى سباتى . . أنعم بنومة هادئة عندما سمعت فى الفصل ضجة مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهادىء .

وفزع الشيخ على وصاح ثائراً :

— ما هذا ؟ .

وأجابه الفصل كله فى نفس واحد :

— حذاء عبدالعزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لى جفن فى درس عربى . فقد كنت لا أكاد أحس بالخمول وأستسلم للنعاس واضعاً ساقاً على ساق . . حتى ينزلق الحذاء من قدمى ويهوى إلى الأرض فى ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على فى حاجة بعد ذلك لأن يسأل عن سر الضجة . . بل كان يصيح حانقاً :

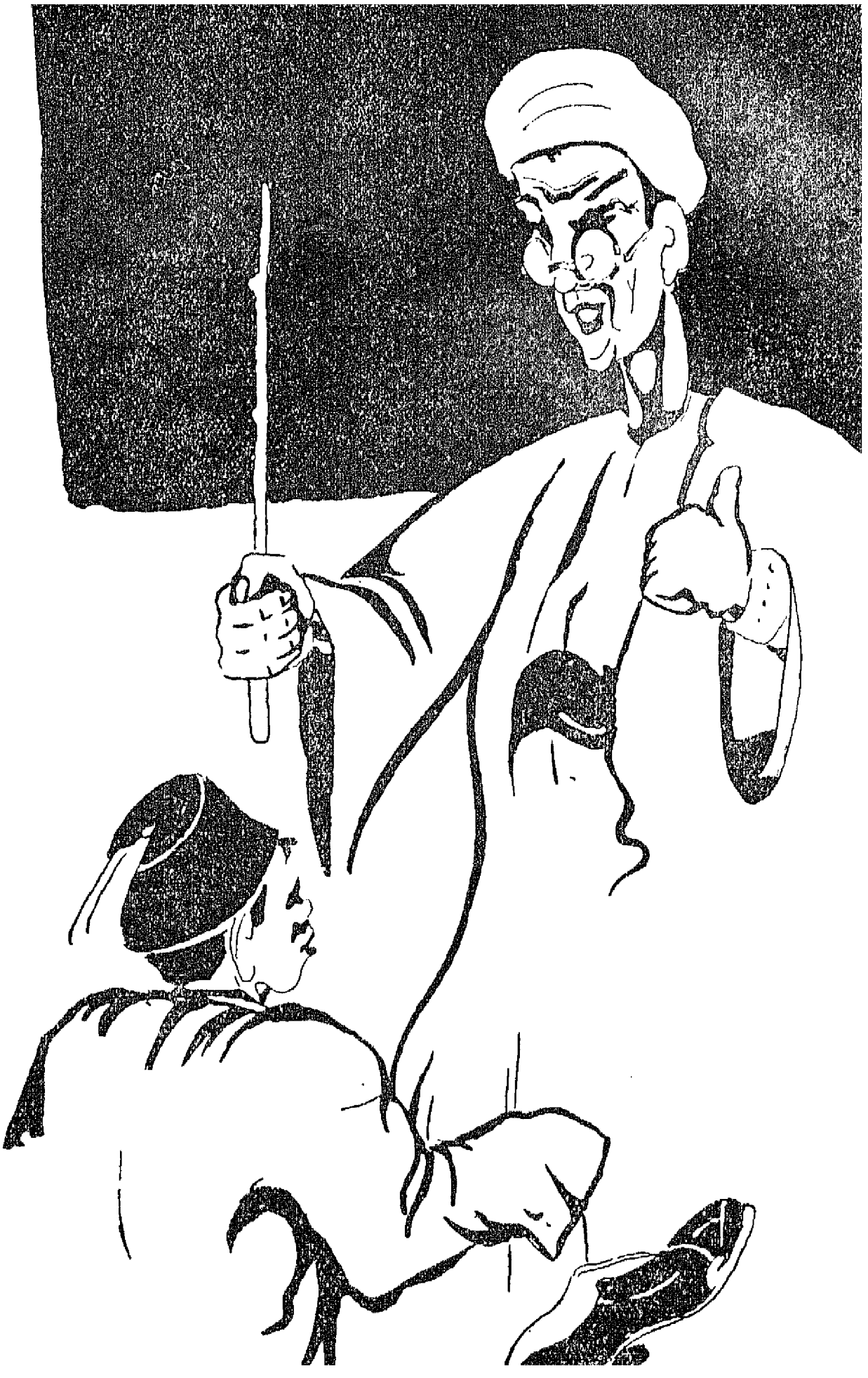

ـ أخرج بره ياواد ياعمران يابن الكلب .

ثم يهجم علىّ ويعدو ورائى وأنا ممسك بالحذاء فى يدى ، وأنطلق هارباً من الفصل ، والتلاميذ يضجون بالضحك والأستاذ يضج بالشتائم ويصيح :

ـ أقسم إنك لن تفلح ياغبى يا بليد . . هذا شاربى إن كنت تفلح . . سأذكرك بقولى هذا فى المستقبل . . عندما تصبح كسمارياً ، أو عربجياً . ! هذه أشكال لا تنفع فى المدارس .

* * *

ولم يكد عمران باشا ينتهى من حديثه حتى لمحت حذاءه (الباللى) الوجيه ينزلق من قدمه ويهوى إلى الأرض ، ورغم أن الضجة التى أحدثها الحذاء عندما اصطدم بالأرض كانت ضجة خافتة إلا أنها كانت كافية لإيقاظ الشيخ المغرق فى نومه فى المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه فى فزع . . وبحركة لاإرادية وجدته ينحنى فيتناول الحذاء ، ويسلمه إلى عمران باشا قائلا فى أدب :

ـ اتفضل ياسعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول فى تواضع :

ـ العفو ياسيدى العفو .

وقبل أن يعود العجوز إلى سباته رأيت الباشا يقوم بواجب التعريف بيننا . فيشير بيده إلىّ ثم إلى الشيخ قائلا :

ـ الاستاذ الشيخ على الأبريمى . .

وتملكتنى دهشة شديدة .. أهذا إذاً هو الشيخ الإبريمى . مدير العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يغالب النعاس . . فاستغرق فى نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمماً حديثه متجاوزاً عن علامات الدهشة التى بدت على وجهى :

ـ لقد مرّت الأيام وانتقلت من مدرسة إلى مدرسة ، والشيخ على مازال مدرساً للغة العربية ، وأصبحت مهندساً وهو ما زال مدرساً للغة العربية ، وتوظفت فى الحكومة واستقلت من الحكومة وهو ما زال مدرساً للغة العربية ، وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو مازال مدرساً للغة العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل علىّ مرحباً مهللا مكبراً ، وصاح بى :

ـ ماشاء الله . ماشاء الله . . من يومك وانت فالح . . هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أتنبأ لك بهذا

الفلاح . أتذكر يوم قلت لك أنى سأذكرك بما ستصبح عليه مستقبلا ؟ .

ــ أذكر ياشيخ على . . أذكر جيداً .

وأنبأنى أنه سيحال إلى المعاش بعد بضعة أيام بلا معاش ، بعد خدمة وزارة المعارف أربعين عاماً . . فقلت له :

ــ ربنا تاب عليك من التدريس ياشيخ على ! . . تحب أشوف لك وظيفة فى الشركة ؟ .

ــ ياريت . . !

وهكذا ختم الشيخ على الابريمى مطافه المدرسى . . بوظيفة فى شركة الدوبارة .

وصمت الباشا برهة . . فسألته :

ــ وماذا يعمل الشيخ فى الشركة ؟ .

ــ لاشىء ، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما رأيت ؟ يسهينى ويرفع الحذاء الساقط . . ! رحم الله العلم والتدريس فى أرض الكنانة !